مجلة الحقيقة للعلوم الاجتماعية والانسانية
EL - HAKIKA (the Truth)
Journal for Social and Human Sciences

المجلد: 22 / العدد: 02 / السنة: 2022 ص ص:277-294

نهضة التابع/ دراسة في رواية "معارضة الغريب" لكمال داود

The Renaissance of the Follower/ Reading in the Novel of Opposition to the Stranger by Kamal Daoud

إبراهيم بوخالفة

المركز الجامعي مرسلي عبد الله بتيبازة ;boukhalfa.brahim@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/10/04 **تاريخ القبول:** 2023/04/19 **تاريخ النشر:** 2023/06/16

ملخص:

لا تزال علاقات الهيمنة بين الشرق والغرب مصدر قلق للعالمثالثيين بعد زوال الاستعمار التقليدي، رغم شيوع التنوير وانفتاح الحدود بين الدول والشعوب، وانتشار المعرفة العقليّة. وقد انبرى بعض الأدباء الجزائريين إلى تحرير تلك العلاقات من طبيعتها العنصريّة، من خلال نقد هيمنة المركز على الهامش.

من أهم الذين اشتغلوا على هذه الإشكاليّة الروائي الجزائري كمال داود في روايته المعاصرة "معارضة الغريب". فقد عمد إلى معارضة رواية "الغريب" لألبير كامو، وانتقد مسعى تلك الرواية الكولونياليّة إلى تجاهل الوجود الجزائري على الأرض. فهل نجح كمال داود في استعادة الهوية التاريخية لأصحاب الأرض، ممثلين في شخصيّة موسى وهارون ووالدتهما؟ وهل تمكن من تقويض مركزية المركز، وإعادة العلاقة بين الشعبين إلى طبيعتها الإنسانيّة؟ هل استطاع أن يقدّم نفسه باعتباره وجودا مختلفا، يمارسُ حقّه في التعايش المشترك دون الدّوس على آخريّة الأخرين؟ تلك هي أسئلة هذا المقال

كلمات مفتاحية: المركز؛ الهامش؛ الآخر؛ الهوية؛ الاختلاف.

Abstract:

Hegemony relations between East and West are still a source of concern to the Third World after the demise of traditional colonialism, despite the prevalence of enlightenment, the openness of borders between states and peoples, and the spread of rational knowledge. Some Algerian writers set out to liberate these relations from their racist nature, by criticizing the domination of the center on the periphery.

Among the most important who worked on this problem is the Algerian novelist Kamal Daoud in his contemporary novel "The Stranger's Opposition". He deliberately opposed the novel "The Stranger" by Albert Camus, and criticized the colonial novel's attempt to ignore the Algerian

presence on the ground. So did Kamal Daoud succeed in restoring the historical identity of the owners of the land, represented in the personality of Moses, Aaron and their mother? Was he able to undermine the centrality of the center, and restore the relationship between the two peoples to its human nature? Was he able to present himself as a different being, exercising his right to coexistence without trampling on the otherness of others? Those are the questions for this article.

Keywords: Center; Margin; The Other; Identity; The Difference.

مقدمة:

لقد دأب الغرب الحديث على ازدراء آخريه من الشعوب غير الأوروبيّة، من خلال الكتابات الأدبيّة وغير الأدبيّة، كما من خلال الميديا المكتوبة والمسموعة، ومن خلال السينما والمسرح وسائر الأنشطة الفنيّة. لقد شكّل هذا السلوك العنصري من قبل الطبقات العالمة في الغرب، موقفا عدائيا اعتباطيّا من العرب والمسلمين، لم يتوقّف بعد تفكيك الاستعمار الكلاسيكي للشرق العربي والإسلامي، بل إنّه ازداد ترسّخا وتثبيتا في الخطابات الشعبيّة والمؤسساتيّة للحكومات الأوروبيّة.

إنّ هذه المواقف العنصريّة لا تستندُ إلى أيّ تبريرٍ عقلي، أو تفسيرٍ موضوعي، وإنّما إلى إيديولوجيا عنصريّة تأسست خلال قرونٍ من الكراهيّة والتحيّز للذّات وللثقافة وللقوميّة وللعرق. لقد كان الشرق يمثّل رجّة مأساويّة عنيفة للوعي الأوروبي، رأى فيها تهديدا وجوديا يمثّله الإسلام باعتباره عقيدة صلبة لا تقبل التفاوض والتعايش مع الثقافات التي لا تتماشى مع رؤيتها للعالم. وانطلاقا من هذا الإدراك العدمي للإسلام والمسلمين، راح الغرب بكلّ مؤسساته العلميّة والثقافيّة والأمنيّة، يؤسّس لثقافة الكراهيّة لتلك الشعوب المتاخمة لحدوده؛ وسوف يتكفّل خبراؤه وعلماؤه، وكتابه وفنانوه، بصناعة ثقافة علميّة وغير علميّة تسوّغُ استعمار تلك الشعوب، وتبرر احتلال الأرض واستعباد أصحابها. وسنجدُ فلاسفة أوروبا الحديثين، وانثروبولوجييها ومستشرقيها ورحّالتها منكبّين على دراسة الشعوب العربيّة والإفريقيّة، من أجل اكتشاف دونيّتها، وتخلّفها الجبلّي، وقصورها العقلي؛ وكل ذلك يجعلها عاجزة عن مجاراة الشّعوب الأوروبيّة في نهضتها العلميّة والإنسانيّة. وفي هذا السياق يخطر بالبال فلاسفة كبار من أمثال هيجل وكارل ماركس وجوزيف آرثر دو غوبينو، كما يخطر بالبال مستشرقون من أمثال دو ساسي وتلميذه أرنست رينان، ورحالة

غربيون من أمثال شاتوبريان وفلوبير، وبيير جوردان. كلّ هؤلاء سيكرّسون كتاباتهم من أجل صناعة ثقافة ازدراء الآخر وترذيله، وسوء تمثيله، من أجل تسويغ احتلاله، ثم في مرحلة لاحقة، يتمّ استعباده أو تحييده، تجنّبا لتمرّده، ومنعا لنشوء سرديّات المقاومة.

وكردّ فعل على هذا السّلوك العدائي من قبل الغرب، لم يتمكّن بعض مثقفي الهامش من الصّمت، بل عملوا على الردّ بالكتابة على الهيمنة الغربيّة على الصّعيد الثقافي والاقتصادي والسياسي. ومن ثمّ آل الأمر إلى نشوء سرديّات المقاومة من أجل تقويض المركزيّة الغربيّة والاعتراض على مشاريع الامبراطوريّة التي لم تتخلّ عن أهدافها القديمة في ابتلاع ثروات المستعمرات القديمة، وتحويلها إلى حدائق خلفيّة للغرب، وحقول تجارب وأسواق لترويج منتجاته. يخطرُ بالبال في هذا السياق المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد، مؤلف "الاستشراق" و"الثقافة والامبرياليّة" وهما كتابان يندرجان ضمن مسعى تفكيك الخطاب الاستعماري، وبيان الطّبيعة العنصريّة للاستشراق الفرنسي والبريطاني، المنخرطين في الشّرط الامبريالي. من المناسب أيضا ذكر الناقد الثقافي الهندي هومي بابا، مؤلف "مواقع الثقافة" و"السرد والأمّة". ويندرج الكتابان في ذات السياق لكتابي إدوارد سعيد المذكورين أعلاه. أمّا المناضل المارتينيكي فرانس فانون، فهو ملهم عصر المقاومة الثقافيّة لكتّاب الهامش في حقبة الحداثة وما بعد الحداثة. ورغم قلّة مؤلفاته، فإنّه أكثر الكتاب تأثيرا في الإنتاج الفكري الناطق باسم التابع، والمهمّش. نخصّ بالذّكر كتابي "بشرة سوداء أقنعة بيضاء" و"معذّبو الأرض".

صوت المركز

يندرج الحديث عن المركز ضمن جغرافيا الاختلاف بين الغرب وآخره، وضمن الثنائيّة الضديّة الشهيرة "مركز/هامش. "لم يكن ممكنا للكولونياليّة أن توجد على الإطلاق، إلاّ من خلال افتراض وجود مقابلة ثنائيّة ينقسم إليها العالم" (**بيل أشكروفت، 2010، ص93**) ؛ لقد تأسست الامبراطوريّة الغربيّة على علاقة هرميّة ثابتة بين المستعمَر باعتباره آخر، وبين المستعمِر باعتباره سيدا، يحتلّ مركز الحضارة الإنسانيّة، ويُنتجُ نظامها الثقافي والأخلاقي المهيمن بشكلٍ مطلقٍ وأبديٍّ. المركز إذا هو قلب العالم ومحوره، وهو مصدر المعرفة والعلوم، وهو صانع القيم والفلسفات، والآداب والفنون. إنّه معيار الحقيقة، والمرجع لكل فكرٍ، والحدّ في كلّ شيء. أما الهامش فهو الأطراف. إن كلّ شيء يصدر من خارج المركز "يقف عند هامش وحافّة الثقافة، والسلطان

والحضارة" (**بيل أشكروفت، 2010، ص93**). والهامش من صنع المركز ومقتضياته، فالامبرياليّة تهمّشُ القارات غير الأوروبيّة والأقلّ تطورا. ومن هنا، فالعلاقة بين المركز والهامش هي علاقات قوّة وهيمنة، تعمل الحكومات الغربيّة على تأبيدها من خلال خلق نظام دولي يمنع نهضة التابع، رغم أنه يعمل على جلبه إلى دائرته، من خلال القضاء على مبدأ الاختلاف الثقافي وخلق شكل من التطابق بين التابع والسيّد. "وهكذا فقد صار مدار الإرسالة الكولونياليّة الرامية إلى جلب الهامش إلى مجال تأثير المركز المستنير التبرير الأساسي للاستغلال الاقتصادي والسياسي للكولونيالية، لا سيما بعد منتصف القرن التاسع عشر" (**بيل أشكروفت، 2010، ص94**) وإلى يومنا هذا. إنّ مساعي المركز لإبقاء دول الهامش تحت المجهر، تمرّ من خلال اتفاقيّات التعاون الثقافي والاقتصادي والأمني. والواقع أنّه أبعد ما يكون عن التعاون، بل هو علاقة هيمنة تسيّد يجدان مبررهما في ضعف الهامش وافتقاره إلى السّلطة وحريّة الحركة. لا يزال العالم العربي اليوم منقوص السيادة بفعل سلطة الامبرياليّة التي تحيط وكلاءها باتفاقيّات مذلّة، تمنع نشوء سرديّات المقاومة، على الصّعيد الثقافي بشكل عام.

إنّ تغيير علاقات القوة بين المركز والهامش ينطلق من معامل الثقافة والأفكار والعقليّات. وهذه القنوات لا تمرّ بالمرونة اللازمة. ممّا لا شكّ فيه أنّ الكثير من الكتاب والفنانين عاكفون على تشكيل مقاومة ثقافيّة انطلاقا من الكتابة الجمالية. غير أنّ هذه المحاولات، على أهميّتها القصوى تبقى قاصرة على تحويل علاقات الهيمنة بين الشرق والغرب إلى علاقات متكافئة، نظرا لتباين مرجعياتها الفكريّة وأطروحاتها الإيديولوجيّة. ونخصّ بالذّكر في هذا السياق بعض الكتّابَ الفرونكفونيين، وفي مجال الكتابة الرواية الذين أحدثوا القطيعة النّهائيّة مع هويّتهم القوميّة، بدعوى الحداثة والتنوير على النمط الغربي. وتُعتبرُ الكتابة الفرونكفونيّة من هذا المنظور–في جزء منها– نجاحا لمشروع الأنوار الغربيّة، المتمثّل في تشميل الثقافة الغربيّة وعولمتها، وإزاحة الثقافات الأقلّويّة لدول الهامش باعتبارها ثقافات متخلفة. ويمكن أن نمثّلَ لذلك بالروائي الفرونكوفوني المعاصر "أمين معلوف" الذي انغمس في الثقافة الغربيّة بكلّ جوارحه، وتماهى معها، وتبنى رؤيتها للعالم. إنّه –وبدل أن يسعى لترميم صورة العرب في الغرب الحديث–راح يُعمّق من دونيّتهم، ويروّج للكليشيها التّحقيريّة التي تعوّدنا على سماعها من قبل المستشرقين سيئي السّمعة. لم يتمكن أمين معلوف من التخلص من بنية الفكر الاستشراقي، ولم يكن معنيّا بذلك أصلا. إنّ معظم رواياته

حول الشرق، لا تَعْدو عن كونها مصنّعا للصور الرهابيّة عن الشرق، من عربٍ ومسلمين، بينما يظهرُ الإسرائيليون بشرا أسوياء، وكلّ ما يفعلونه هو الدّفاع عن الحقّ في البقاء.

من أجل ذلك تحتفي المؤسسة الأدبيّة في فرنسا بهذا الروائي العربي، وتحيطه بكلّ أشكال العناية، وتغدقُ عليه الجوائز الدّوليّة، وتبوّئه المناصب العلميّة العليا في أشهر جامعاتها. إنّ المركز يعيد إنتاج نفسه وتجديدها من خلال هؤلاء الكتاب الذين تخلوا عن أصولهم الحضاريّة. فهم صوتها خارج حدودها، وأثرها على أغيارها. في الفترة التي سبقتْ الاستعمار الحديث لدول إفريقيا وآسيا، كان الاستعمار يتّخذ من المستشرقين مستشارين وخبراء مرافقين، يتكفّلون بإخراس الهامش. وبعد تفكيك الاستعمار التقليدي يضطلع بعض مثقفي الهامش، بعد جلبهم إلى المركز بنفس الوظيفة: الترويج لثقافة الغرب ولقيمها ولحداثتها، وتغييب أصوت المقاومة وتوهينها، من خلال تدنيس مقدّسات الذّات وبيان طبيعتها الخرافيّة. وفي هذا السياق تندرج الكثير من الأعمال الروائيّة لكتّاب جزائريين عملوا على نشر قيم العلمانيّة وازدراء الأديان، والتشهير بعادات وتقاليد الفئات المحافظة. ومن أمثلة ذلك رواية "معارضة الغريب" لكمال داوود، والتي تبدو في ظاهرها أنّها تردُّ بالكتابة على رواية ألبير كامي الكولونياليّة "الغريب". وسنعرض لهذه السرديّة بالتفصيل في الجزء التّطبيقي من هذا المقال.

قصّة "المتمرّدة" لأمل بوشارب هي الأخرى تندرج في سياق الردّ على سرديّات المركز، فهي الصوت المضاد لصوت المركز. إنّها قصّة قصيرة من أربع عشرة صفحة، ولكنّها تؤسس لفعلٍ مقاومٍ في قلب المركز، وانطلاقا من خطابه المتعالي. إنّ التابع في تلك القصّة، يرفض النمط الذي وُضِع فيه من قبل مضطهده، ويتمسّك بمرجعياته الثقافيّة والقوميّة ليحاجج من خلالها ما لا ينسجم مع خطّ تطوّره. لم تعد حرب الهامش للمركز تتعلّق بالمكان. فالردّ على الامبرياليّة لا يشترط مكانا معينا. إنّها حربٌ مفتوحة في المكان والزمان، وأدواتها قد استولى عليها التابع كغنيمة حرب. في قصّة أمل بوشارب وكمال داود، تتمّ المعركة في أرض المركز، حيثُ يكون هذا الأخير متسيّدا للمشهد الثقافي، ومتحكّما في أدوات المعركة، ووجهتها. ومع ذلك تتهاوى سرديّاته، ويتكشّف فساد منطقه، وتلفيقه للحقائق.

إنّ مبعث قوة خطاب المركز هو ضعف التابع، وافتقاره إلى جهاز لغوي وقدرة على الجدل، يمكّنانه من الحجاج المفحم، والردّ على زيف ادّعاءات المركز، وطبيعته العنصريّة التي تتناقض مع القيم الحضاريّة التي يعلنها.

التابع يتكلم:

لقد حوّل الغرب الحديث كثيرا من شعوب إفريقيا وآسيا إلى أفواج من التابعين، الذين يتسوّلون لقمة عيشهم على موائده، ويستعطفونه من أجل أن يُبقيهم على قيد الحياة، في مقابل أن يمنحوه جهدهم وإخلاصهم وتفانيهم في خدمة اقتصاده، والولاء لنمط عيشه ولقيمه الثقافيّة العليا. ومن وبين ما يعنيه ذلك أنّ التابع يتخلّى عن كل الروابط التي تشدّه إلى بلده، كما يتخلى عن ثقافة أسلافه وتقاليد عيشه التي تعلّمها في الوطن الأمّ. إنّ قوارب اللاجئين التي تعبر المحيطات باتّجاه المركز، والتي يندرُ أن تصل سالمة إلى هدفها، تذهبُ لتتسوّل لقمة العيش ولتتحوّل إلى خادم أمين في مجمّعات الرأسماليّة المتوحّشة. فإذا كان النظام الكولونيالي قديما يتنقل بكلّ طواقمه البشريّة والاقتصاديّة والثقافيّة إلى المستعمرات، ويحوّل سكّانها إلى عبيد، فإنّه اليوم يدفع بهم إلى أن يأتوا بأنفسهم، وطوعا إلى المركز ليتحوّلوا إلى خَدَمٍ للإمبراطورية، والتفاني في خدمة السيّد المطلق.

في هذا الفصل من هذه الدراسة نسعى إلى مراقبة سلوك التابع، كيف يتمّ تنميطه، في ثقافة غريبة عنه، تستغرق كلّ وعيه، وتسلبه كلّ إرادته، فيجد نفسه منساقا وراء الآلة الاقتصاديّة الغربيّة المتوحّشة، فإذا أفاق من ذهوله لأسباب معيّنة، انتفض على أسياده وحاول التمرّد على وضعه كتابعٍ، منزوع السيادة، مفتقر للكرامة والإنسانيّة. غير أنّه من الأهميّة بمكانٍ أن ننظر في مفهوم التابع في الدراسات الثقافيّة، وعلى أساس ذلك يتّضح الطّريق إلى الهدف من خلال هذه الدّراسة، وهو الوقوف على نهضة التّابع من عدمها. التابع أو المهمش (**subaltern**)، مصطلح درج على استعماله المفكر الإيطالي الماركسي أونطونيو غرامشي، ويقصد به "الجماعات التي تقع تحت هيمنة الطّبقات الحاكمة داخل المجتمع، (....) والتي تُحرمُ من الوصول إلى السلطة المهيمنة" (**بيل أشكروفت، 2010، ص319**). ويندرجُ تحت لواء تلك الجماعات المهيمن عليها العرب والأفارقة بشكلٍ خاص، هؤلاء الذين دفعتْ به ظروف بلدهم إلى الهجرة إلى الغرب بحثا عن حياة، أيّما حياة. كما تُصنّف الشعوب العربيّة والإفريقيّة في بلدانها إلى تابعين لنظام امبريالي قد فرضته الدّول العظمى، وتعني التبعيّة في هذا السياق أنّ العربي على سبيل المثال، تُفرَضُ عليه ثقافة

غريبة عنه، تجرّده من قيمه وتحوّله إلى آلة إنتاجيّة في نظام اقتصادي مركزي، ويعود إنتاجه المادّي إلى هيأة ماليّة غريبة عنه، ولا يصله منه إلاّ ما يبقيه قادرا على مواصلة العمل.

عادة ما يُمنعُ التابع من الوصول إلى مراكز صنع القرار، فلا يكون بوسعه تمثيل نفسه. ففي الداخل، يتمّ الحديثُ نيابة عنه من قبل السلطة الحاكمة، التي تنظرُ إليه بوصفه قاصرا، غير قادر على اتّخاذ القرارات السليمة التي تناسبُ مصالحه الطّبقيّة؛ وفي الخارج يُصارُ إلى تهميشه باعتباره أجنبيّا، ينتمي إلى عرقٍ محكوم، ويتعيّنُ إقصاؤه من أماكن تجمّع الأوروبيين، فيمنعُ عن أنديتهم، ومؤسساتهم الثقافيّة. إنّه الأجنبي الذي يسمّمُ الحضارة الأوروبيّة بسبب سلوكه غير المتحضّر، إنّه عنيفٌ، ومتوحّشٌ، وكسولٌ، وقذرٌ. في الرواية الكولونياليّة كثيرا ما يرصفُ العربي ب"المقمّل"، و"البربري" و"الهمجي". وهي طريقة من طرق الدّوس بالنعال على آخرية غير الأوروبيين، وتصنيفهم إلى كائنات دونيّة، يجبُ ترويضها وتحضيرها، وتشذيبُ شذوذيّتها. إنّ التابعين المهمّشين، في بلدانهم كما خارجها زائدون عن الحاجة، لا وجود لهم في التاريخ الفعلي لشعوبهم، كما لا وجود لهم في الثقافة العالمة وغير العالمة، ولا يُلجأ إليهم إلاّ لخدمة حاجات السيّد **(بوخالفة إبراهيم، 2021، ص21)**.

يلجأ الغرب إلى إحدى الصيغتين في التعامل مع التابعين؛ "إما الدمج، أي التهام الغرباء بحيثُ يمتصّهم الجسم ويصيرون متماثلين مع خلايا الجسم الأخرى، بعدما فقدوا صفتهم المميزة لهم. أما الصيغة الثانية فترتبط غالبا باستراتيجية الإقصاء، أي تقيؤ ولفظ من لا يصلحون ليكونوا (نحن)، إمّا بعزلهم (....) أو عن طريق محاصرتهم وترحيلهم أو إرغامهم على الهرب، كما الحال في الممارسة التي يقال لها هذه الأيام (التطهير العرقي)" **(زيجمونت باومان، 2016، ص248/249)**. تتمثّلُ الصيغة الأولى في إزالة أعراض الاختلاف الثقافي بين ثقافة التابع وثقافة المتبوع، بحيثُ يتخلّى الذين يمثّلون العرق الأدنى عن خصوصيّاتهم الإثنيّة، وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم القوميّة، وينصهرون في الثقافة الغربيّة، على غرار ما يفعل المهاجرون المقيمون في أوروبا وأمريكا بشكلٍ دائم. فهؤلاء، حتّى في حالة العودة المؤقّتة إلى الوطن، فإنهم يفقدون معالم هويتهم، ويكتسبون عادات غربيّة تمنعهم من استعادة أصولهم.

أمّا الصيغة الثانية، فإنّها تقتضي الفصل بين العرق الأدنى والعرق الأعلى. وقد فرض الاستعمار الفرنسي الكلاسيكي نظاما اجتماعيا يمنع اختلاط العرب بأصحاب الأرض، في

المدارس والمرافق الكولونياليّة. فنحن نجدُ على سبيل المثال لافتات تمنع أطفال العرب من دخول دور السينما التي يرتادها المستوطنون الأوروبيون، كما نجد نفس الظاهرة في مداخل المطاعم الفاخرة والحانات والحدائق العموميّة. "إنّ جماعة من البشر تعيش على بضعة هكتارات من الأرض ستقيمُ حدودا بين أرضها ومحيطها المباشر وبين ما هو خارج عن ذلك، وتسمّي ما يقعُ عبر حدودها أرض البرابرة" (**إدوارد سعيد، 2005، ص101**). أرض البرابرة هي تلك الأكواخ والحفر والمغارات المدفوعة إلى الأطراف، والتي يقيمُ فيها الذين سمّاهم فرانس فانون "المعذّبون في الأرض". هؤلاء هم أفواج التابعين التي حوّلها الاستعمار الغربي إلى آخر، محكوم عليه بالإبعاد والإقصاء والنفي، لأنّ وجوده يسمم الحضارة الإنسانيّة بروائحه الكريهة وأنفاسه وبشرته السوداء، والمثيرة للتقزز.

وفي أوروبا يتنامى العداء للأجانب، وتتعالى الأصوات المحذّرة من البرابرة القادمين. إنّ فوبيا الإسلام تقضّ المضاجع، وتلهبُ الحماسة العنصريّة، وتضاعفُ الكراهيّة لهذا الآخر الذي لا بدّ منه. إنّ وجوده أضحى جزءا من أوروبا، ومكونا من ثقافاتها، بل إنّ قطاعا واسعا لا يُخفي تعاطفه مع هذا التابع الذي يُهدِّدُ بإزاحة المركز وتحويله إلى هامش. لطالما اشتهى التابع مكان الرجل الأبيض، وتمنى مسكنه الفاخر، وزوجته الجميلة. ومن أجل ذلك يفكّر في تحييده. إنّ العلاقة بين المركز والهامش لا تبشّرُ بنهاية سعيدة. فالقسمة بينهما لا تقبل التّفاوض، والمعركة لا هدنة فيها. إنّهما يتبادلان التهم، والأدوار. فالتابع يتقمّصُ أحيانا دور الضحيّة، وأحيانا دور المعتدي. وأسياد المركز قد غيّروا من خطاباتهم دون التخلّي عن عقيدة التّعالي.

إنّ عولمة المعرفة وانفتاح الحدود بين الثقافات، والحريّات المكتسبة لدى شعوب الهامش، إنّ كلّ ذلك قد رفع من درجة الوعي بالبؤس لدى المهمّشين والمسحوقين. فغدوا قوة اجتماعيّة ضاغطة باتّجاه كسر المركزيّات، وبيان طبيعتها العنصريّة وأهدافها الاستعماريّة. فصار من الممكن معارضة صوت المركز، ورفض نظامه الكولونيالي، والتّشكيك في قيمه التي لا ينفكّ يدعو إليها ولا يلبثُ أن يناقضها على أرض الواقع. إنّ الامبرياليّة الغربيّة تدعو شعوب الهامش إلى ترسيخ قيم الدّيمقراطيّة والحريات الفرديّة وحقوق الإنسان. غير أنّها لا تكفُّ عن إشعال الحروب خارج حدودها، وافتعال الانقلابات العسكريّة من أجل تنصيب حكومات عميلة، ودعمها بكلّ الوسائل الماديّة والسياسيّة.

إنّ الخطاب التحضيري الذي يرفعه الإعلام الغربي هو أن الشرق عليه أن يتخلّى عن أساطيره، وعن ثقافته الدّينيّة، وعن قيمه الماضويّة، إذا أراد أن يستفيد من الحداثة الغربية، ومن التنوير والتكنولوجيا. غير أنه–في الوقت ذاته–يطوّرُ آليات استبعاد تمنع نهضة التابع. "إنّ الفكر ما بعد الحداثي يرفضُ تحويل الآخر إلى المثل".(**ليندا هيتشيون، 2009، ص121**) لقد رأينا شعوبا عربيّة كثيرة انحازت إلى الدّيمقراطيّة، وعملت على ترسيخها بوصفها خيارا حضاريّا، غير أنّ تحوّلها هذا قوبل بالرفض من طرف الغرب. حصل هذا إثر ما سُمّي بالربيع العربي، الذي لم يبق منه أيّ أثرٍ اليوم. يرفض الغرب تحرير الشرق من الهيمنة الامبرياليّة، لأنّ ذلك يتناقض مع مصالحه. ومع ذلك فإنّ أصوات التابعين تزداد حدّة، ويشتدّ إصرارها على رفض خطاب الهيمنة بكلّ أشكالها. إنّ مثقفي الهامش يجدون أنفسهم اليوم في مواجهة محمومة مع الدّاخل ومع الخارج. وقد شكّلوا امبراطوريّة من السّرد تواجه امبراطورية الشرّ التي يرعاها الغرب ممثّلا في أوروبا الغربيّة وأمريكا. وقد انحازت بعض الأصوات الغربيّة المؤثّرة إلى قضيّة تحرير الشعوب المضطهدة والإنسانيّة المعذّبة في كلّ بقاع الأرض. ومن بين تلك الأصوات الثوريّة يخطر بالبال "إدوارد سعيد" الذي ظلّ طيلة حياته يقارع الغرب، ويعارضُ كلّ أشكال الهيمنة. وقد جسّد كتابه الشهير "الاستشراق" النواة المبكرة للنّقد ما بعد الكولونيالي.

يخطرُ بالبال في نفس السياق المفكّر المصري الحديث "عبد الوهّاب المسيري" الذي كرّس حياته لفضح إرهاب الغرب. وإنّ إسرائيل التي تُعدُّ صنيعة الامبرياليّة العالميّة وأداتها الفعليّة والإيديولوجيّة في قلب العالم العربي، هي الوجه القبيح للمركزيّة الغربيّة. وهي (أي إسرائيل) مكلفة بمهمّة كسر كلّ محاولات التمرّد التي قد تحصل هنا وهناك في العالم العربي والإسلامي، في إفريقيا وآسيا. كتب المسيري "إشكاليّة التحيز" الذي أثار ضجّة كبيرة في الشرق الأوسط، كما أثار غضب إسرائيل وأمريكا، لأنه يفضح تحيّز الغرب ضد آخريه، ودوسه بالنعال على شعوب الهامش التي تقف في مواجهة مشروع الإمبرياليّة الغربيّة في السطو على خيرات الهامش. إنّ "الهيمنة ضروريّة للامبرياليّة لأنّ القدرة على التأثير في فكر المستعمَر، هي إلى حدٍّ بعيدٍ العمليّة الأكثر إسنادا وتفعيلا للقوّة الامبرياليّة في المناطق المستعمَرة" (**بيل أشكروفت، 2010، ص63**) إنّ علاقات القوة والهيمنة بين المركز والهامش لا تزال على حالها، رغم الطّفرات العلميّة في الأطراف، وتشابك المصالح بين الدول بين ضفتي المتوسّط. فالغرب غربٌ والشرق شرقٌ ولن يلتقيا أبدا.

الردّ على المركز من خلال رواية "معارضة الغريب":

استرجاع الهويّة:

مع مطلع رواية "معارضة الغريب" يصرّح كمال داود أنّه سينشئ سرديّة مضادّة لسرديّة ألبير كامي، وسيبعثُ القتيل من قبره متوخّيا سلاح القاتل "مورسو"، وسيعيد كتابة التاريخ بنفس الأداة التي وظّفتها الرواية الكولونياليّة. "قرّرتُ أنْ أحذوَ حذو الناس في هذا البلد بعد استقلاله: أعني استعادة حجارة المستوطنين سابقا لأبني بها منزلا لي، لغة لي. إنّ كلمات القاتل وعباراته هي ملكي السّائب".(**كمال داود، 2015، ص8**) إنّ الروائي الذي يدّعي تمثيل صوت الهامش في هذه السّرديّة يلجأ إلى لغة المستعمر نفسه، ليعيد إنتاج التاريخ المضاد للتاريخ الكولونيالي. واللّغة كما هو معلومٌ مشبعة بتاريخ مستعمليها، وبقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم، كما أنّها موسومة بآثار المكان الذي تصفه وتحيا فيه ومن خلاله. إنّها تحمل أثر المستعْمِر والمستعمَر على قدر المساواة، "وهي مسكونة ومكتظة بالنوايا الأجنبية، والسيطرة على تلك النوايا وإخضاعها لنوايانا ونبراتنا" (**ميخائيل باختين، 1987، ص113**)، فتاريخ الجزائر الحديث صنعه الوافد المحتل والأصلاني بنفس الدّرجة من التواطؤ. فهم إذا شركاء ذلك التاريخ الذي كُتِبَ من أجل إقصاء أصحاب الأرض، وإغفال آثارهم وتوهين أصواتهم، وإخراجهم من حركة التاريخ وحشرهم في اللامعنى، وهي منطقة أطرافيّة مهملة.

يدين كمال داود حادثة تجريد الأصلانيين من هويّتهم التاريخيّة، من خلال حرمان الشخصيّات الروائيّة من الاسم والصفة والمعالم الفيزيائيّة. فألبير كامي يطلق على الشخصيّات غير الأوروبيّة "العربي"، وهي كنية تحقيريّة في المخيال الرمزي للأوروبيين منذ القرون الوسطى وإلى يومنا هذا. إضافة إلى كونه لا يشيرُ إلى أيّ وطن، أو أرض معيّنة. إنها تسمية اعتباطيّة، يمكن أن ينوب عنها أي اسم. كان بإمكان ألبير كامي أن يسمّي قتيله "الثانية بعد الظهر، كما سمّى الآخر زنجيّه جمعة أحد آونة النّهار، بدلا من أحد أيام الأسبوع".(**كمال داود، 2015، ص10/9**) وبهذه اللّعبة اللّغويّة الاعتباطيّة يتحوّل الآخر إلى لحظة زمنيّة عارضة، لا تتمتّع بوجود فيزيائي عيني، أو هويّة تاريخيّة متشكّلة ومنجزة، أو في حالة صيرورة. إنّ موسى لا يساوي إلاّ نقطة زمنيّة عابرة (الثانية بعد الظهر)، فهو أشبه بوهم متخيّل، يزول بزوال تلك اللّحظة، دون أن يترك أثرا يدلّ على أنّه مرّ بمكان، أو أنجز فعلا ثقافيّا، أو صنع تاريخا. فكما أنّ الزمن كلّه ماضٍ يوشكُ ألاّ

يكون، فكذلك العربي، وجوده كلّه ماضٍ، ولا شيء غير ذلك. إنّه وجود طارئ ولحظة عارضة يتعذّرُ القبض عليها. وهكذا، ومن خلال استعارة لغويّة يحوّلُ ألبير كامي أمّة بكاملها إلى عدمٍ، أو وهمٍ. العرب يموتون كما تموت الحشرات المزعجة، دون أن يتركوا أثرا لوجودهم. "صحيحٌ أنّ مورسو يقتل عربيا، بيد أنّ هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ، دع عنك أن يكون له أمّ أو أبٌ. وصحيحٌ أيضا أنّ العرب يموتون بالطّاعون في وهران، بيد أنّهم دون أسماء كذلك" (**إدوارد سعيد، 2004، ص236**). ذُكر مصطلح العربي أكثر من عشرين مرّة في الرواية، وكذلك ذُكِر في "الغريب"، وهذا التردّد للكنية لا يمكن أن يكون اعتباطيّا. فأن تحرم الشخص من اسمه يعني أنّك تسلبه هويته. فالاسم يحمل ذاكرة ثقافيّة وتاريخا وأرضا، وهو يحيل إلى مرجعيّة حضاريّة. ونزع الاسم عن الشخص هو تحويله إلى حدثٍ عارضٍ، يفقد أثر وجوده بمجرّد أن يختفي عن الأعين.

وفي ردّه على هذا القتل الرمزي للجزائريين في أرضهم، يعمد الروائي إلى تجريد الفرنسيين من أسمائهم الثقافيّة، ليعطيهم اسما تحقيريّا، يحوّلهم إلى كائنات منبوذة "نحن في الحيّ، في عالمنا كنا مسلمين، لنا أسماؤنا ووجوهنا، وعاداتنا، وكفى، هم الغرباء، الروميون الذين أرسلهم الله لكي يمتحننا، لكن في أيّ حالٍ كانت ساعاتهم معدودة، سيرحلون في يوم من الأيام" (**كمال داود، 2015 2004، ص85**). إنّه الردّ بالكتابة على الكولونياليّة التي تزور التاريخ، وتقتل البشر كما يقتل أحدنا الحشرات السامّة. ظهر ضمير ال"نحن" مرفقا بعالم"نا"، وأسمائ"نا" وعاداتّنا"، وفي معارضة حاسمة "هم الغرباء" و"ساعاتهم المحدودة" للدّلالة على وجودهم العارض في أرض"نا". فهم لا محالة سيرحلون. إنّه استشرافُ الواثق من حركة التاريخيّة الخطيّة، التي ستنهي وجودهم حتميّا في مجالنا. إنّهم غرباء وروميون، وسوف تتقيّؤهم أرضنا لأنهم جسمٌ غريبٌ.

يرسلُ كمال داود اسما تحقيريا ردّا على لفظ العربي الذي يعبّر عن النظرة الدّونيّة للمحتل تجاه أصحاب الأرض. "أخبرتني أمي أولا أن أحد الغاوري قتل أحد أولاد جارنا فيما كان يدافع عن امرأة عربية وشرفها" (**كمال داود، 2015، ص36**). ففيما كان القتيل موسى يدافع عن ابنة جاره، تصيبه رصاصة من قاوري، كان يتسكّعُ على شواطئ الجزائر دون هدفٍ معلومٍ، على عادة شخصيّات سارتر وكامي الضائعة، التي لا تعرفُ ما تفعله بحريّتها، ولا تملك نقطة ارتكاز تُسنِدُ به وجودها المأساوي، ولا تملك عمقا روحيّا يبعثُ فيها الأمل والاستمتاع بالحياة، وممارسة الوجود بشكلٍ إيجابي. لقد كان مورسو يمارس لحظة عبث عندما قتل موسى؛ "ما إن

ماتت والدة هذا الرجل القاتل حتى بات بلا موطن، وغرق في البطالة والعبثيّة، وظنّ نفسه روبنسون المفترض به أن يغيّر القدر بقتله رجله "جمعة". بيد أنّه اكتشف أنه في فخ على جزيرة. وراح يهذي كببغاء معزيا نفسه" **(كمال داود، 2015، ص12/11)** إنّ الإحالة على رواية "روبنسون كروزوي" استعارة كولونياليّة بليغة. فذه الرواية توثّق لحظة اكتشاف الجغرافيا من قبل الرّجل الأبيض، وطريقة نشره للحضارة في البراري الخالية. فالمكان الذي تعبره أنفاس الغرب لا يعود مقفرا كما كان. بل ستغمره حضارة أوروبا الكونيّة وسيشمله التنوير والحداثة المظفّرة. وتلك هي رسالة فرنسا في الجزائر.

لقد كان مورسو نظير روبنسون كروزوي، ناشرا للحضارة وللعدالة المسيحيّة، تلك النّظاهرة الثقافيّة الأعلى في التاريخ البشري. وعندما يُحاكم على جريمة القتل سرعان ما تختفي التّهمة، وتتحوّل إلى ضربة شمس، وتُستبدل بضعف الحداد على الأمّ المتوفّاة. فالمسيحي المثالي، الذي يسعى لنشر (عدالة الرب) لا بدّ وأن يكون مسيحيّا كاملا تتجسّد فيه قيم العائلة المسيحيّة.

إذا كانت شخصيّة القتيل في رواية كامي لا تملك اسما ولا مَعْلَما، فإنّ كمال داود يستعيد اسمها وملامحها الفيزيائيّة للدّلالة على وجودها الفعلي ضمن جماعة ثقافيّة تشكل أمّة وشعبا ذا تاريخ حقيقي. "كان موسى أخي البكر، فارع الطول، طويل القامة نعم، إنما جسمه نحيل أعقد بسبب الجوع والقوة المتولدة عن الغضب؛ كان وجهه حاد التقاطيع ويداه طويلتان تدافعان عني، ونظراته قاسية بسبب الأرض التي فقدها الأجداد" **(كمال داود، 2015، ص16)**. لقد أعاد هارون تشكيل صورة موسى، فبدا طويل القامة، صلب العود، ينبعثُ منه غضب الثائر في وجه المحتل، كان منظره يوحي بالتهديد والتوعّد بسبب الجوع الذي سببه وجود المحتل، والأرض المفقودة. لقد بدا وكأن مورسو قتل موسى خوفا منه. لقد كان خطرا يتهدّده، في انتظار لحظة الانتفاضة التي ليس بعدها إلاّ الانتقام. وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل العدالة الفرنسيّة تنظر إلى جريمة الاغتيال باعتبارها لحظة دفاع شرعي عن النفس. وتحوّل المحاكمة إلى موضوع جانبي، لتبييض صورة العدالة الفرنسيّة.

لذلك تُستعادُ صورة موسى بوصفها صورة عن بطلٍ مقاومٍ للاحتلال، يدافع عن شرفه وعن شرف قومه وأرضه المسلوبة. إنه لا يمثّلُ نفسه، بل يمثّل روح شعبٍ مقاومٍ. "أمور لا تصدق، وقصص موسى المارد الخفي، المناضل بجسده، العاري ضد القاوري الرومي الفرنسي السمين نهّاب

عرق الجبين والأرض حتى اتّخذ أخي موسى في مخيلتنا صورة الرجل المكلف بإنجاز مختلف المهمّات: ردّ الصّفعة بالصّفعة والانتقام لإهانة ما واستعادة أرض سليب، وإرغام أرباب العمل على دفع المستحقّات" (**كمال داود، 2015، ص26**). لم يكن موسى إرهابيا ولا مخربا كما يدّعي الإعلام الكولونيالي، بل كان يدافع عن أمّة مضطهدة. وهذا هو التاريخ المغيب في سرديات الكولونياليّة الحديثة. هذه هي الفجوات التي يتعيّنُ ملأها من قبل القارئ ما بعد الكولونيالي. إنّها النّصوص المغيّبة، وبغيابها غابتْ إدانة مورسو، ونُسب هلاكه إلى ضربة شمسٍ.

يحقّق الروائي مكسبا تاريخيا، من خلال استرجاع اسم أخيه المغتال، والفاقد لهويّته، لدّرجة أنّ والدته عجزت عن إثبات أن ابنها قُتل شهيدا، ولم تتمكن من إثبات ما تدّعيه بعد الاستقلال لتحصل على حقوقها. "موسى... موسى... موسى..أحبّ أحيانا أن أكرر هذا الاسم، كي لا يختفي من الأبجديّات. وأنا أشدّد على ذلك وأريد منك أن تكتبه بالخطّ العريض. ها أنّ رجلا استردّ أخيرا اسمه الأول بعد خمسين عاما من موته وولادته" (**كمال داود، 2015، ص23**). كان الروائي مع الطالب الفرنسي الباحث في رواية ألبير كامي، وكان يؤكّد أن استرجاع هويّة القتيل هو بمثابة استرجاع الرواية الحقيقيّة للتاريخ الذي دنّسته فرنسا بطموحها الاستعماري، وبتدميرها لثقافة أصحاب الأرض، باعتبارها عرقا محكوما، لا يصحُّ أن يعترض على مشاريع التّنوير الغربيّة التي تهدفُ إلى حكم العالم. كان الكاتب بصدد تقويض مشاريع المركز وبيان طبيعته العنصريّة. إنّ المركزيّة الغربيّة قد انبنتْ على أوهام العقل الغربي وأساطيره، وأحلامه في امتلاك الكون وحكمه بالقوّة، وكانت أوروبا تملك تلك القوّة الماديّة، ولكنها تفتقرُ إلى قوّة الإرادة البشريّة. وذلك هو سبب فشلها في المحافظة على مستعمراتها.

الجانب الآخر الذي يعارض فيه كمال داود ألبير كامو، هو أنّ هارون لم يفقد والدته، بينما مورسو فقدها. في المخيال الرمزي للبشر يشكل عام، توظّفُ الأمّ باعتبارها رمزا للوطن أو للأرض، خصوصا بالنسبة لكاتب أرضه محتلّة. فأن تكون الأمّ على قيد الحياة، يعني أنّها الدّافع الروحي للمقاومة، وأنّ استمرار وجودها مرهونٌ بطرد الأجنبي.

في الثقافة العربيّة والإسلاميّة تُعتبر الأمّ مقدّسة، وهي محور العلاقات الأسريّة الحميمة. فالكلّ يحتفي بها، ويبالغ في

برّها والإحسان إليها. بينما نجد النقيض المطلق لهذا الواقع في المجتمعات الغربيّة. فالأبناء بمجرّد أن يشبّوا يستقلّون عن الأسرة، وتنقطع علاقات الحبّ بين أفرادها. وبسبب ذلك، لم يبالِ مورسو بوفاة والدته، ولم يكلف نفسه حضور مراسيم دفنها، أو التزام حالة الحداد.

المصالحة مع الغرب:

لإن كان كمال داود يعارضُ رواية كولونياليّة، ممثِّلا بذلك ردَّ الهامش على المركز، وملمِّحا إلى نهضة التابع وتمرّده على الأسياد الجدد، سليلي الحضارة الغربيّة ذات المرجعيّة المسيحيّة، فإنّه وبنفس الدّرجة من القوة يردّ على الجهات المحافظة في المجتمع الجزائري الحديث الذي يسعى لاسترجاع الهويّة الإسلاميّة للمجتمع الجزائري بعد خلاصه من النظام الكولونيالي الذي حكم الجزائر لما يقارب القرنين، اعتبارا من لحظة احتلال الجزائر. وانطلاقا من هذه الرغبة يكشف كمال داود عن موقفه الرافض للمرجعيّة الإسلاميّة، وينقلب من معارضة المركز إلى معارضة الهامش، ليتصالح في لحظة تاريخيّة فارقة مع الغرب، انسجاما مع فكرة استشراقيّة مكرّرة في أرشيف الاستشراق الكلاسيكي وما بعد الكلاسيكي، ومفادها أنّ نهضة العرب لن تتحقّق إلاّ ضمن ثقافة دنيويّة، وعلمانيّة، لا أثر فيها لمعامل الدّين.

كان حوار كمال داود مع الطالب الفرنسي الذي ينجز بحثا حول بطل الغريب، في حانة. إنّ اختيار هذا المكان لإنجاز السرديّة المضادّة للمركز ليس اختيارا محايدا. فالذي يحاور الغرب مثقفٌ دنيوي، لا يعتدّ بقيم الأديان السماويّة التي تحرّم المسكرات. ومن هنا، فإنّ المثقف العربي سيحاور الغرب بأدواته المنطقيّة، وبأساليبه في الحجاج. إنّه لا يستندُ إلى مرجعيّة إسلاميّة، علما أنّها المرجعيّة التي شكّلتْ القوة المعنويّة الحاسمة في حرب التّحرير الكبرى. لقد تغيّرت لغة الحوار بعد الاستقلال، والمتاح اليوم هو منطق ما بعد حداثي، لا ديني. ينغمس الروائي في خمره أثناء الحوار، ممرّرا سخريته من الدّين، دون تحفظ. "اشرب، اشرب يا أخي، فبعد سنوات حين ينتهي العالم لن تجد حانة إلاّ في الجنّة".(**كمال داود، 2015، ص13/12**) إنّها السّخرية من الدّين، ومن كلّ ما هو ميتافيزيقي. يذكر الكاتب تعاطيه للخمرة أكثر من مرّة للتأكيد على علمانيّته. ويذهب أبعد من ذلك عندما يصرح بكراهته لأيام الجمعة. وهي أيام مقدّسة عند المسلمين. كما يعبّر عن اشمئزازه من المساجد وما ترمز إليه في المجتمعات الإسلاميّة. "لم يقف السّارد في رواية داود، عند حد نقده للواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، بل يتعدّى إلى نقد المجتمع الجزائري في

علاقته بالدّين الإسلامي بكل جرأة، إذْ نجده يسخر من الإمام الذي أراد أن ينصحه ويحدّثه عن الله، ويبدي كراهيته لرموز التيار الدّيني الذين يحاولون إقناعه بأنهم إخوانه" (**كمال داود، 2015، ص16**).

من الواضح أنّ كمال داود ينتمي إلى فئة المثقفين العلمانييّن الذين لا يرون بدّا من إحداث القطيعة مع ثقافة الذّات، والاندماج مع الثقافة الغربية باعتبارها كونيّة، وشموليّة، ومحرّرة للبشر من سلطة الأديان. فهو يرى أنّ الأديان كلّها، الوضعيّة أو السماويّة تسلب الإنسان حريّة التفكير وتُسْلمه إلى حالة من الاغتراب والتيه الفكري والروحي. إنّ الدّين من منظور كمال داود وغيره من اليساريين، هو أفيون الشعوب. وهي كما هو واضح مقولة ماركسيّة، استنتجها كارل ماركس في "رأسالمال" بعد تحليله للمجتمعات الرأسمالية في أوروبا. وإن تعميم هذه الرؤية الماديّة للأديان هو تجريدٌ غير مقبولٍ، لأنّ لكلّ أمّة تجارب مختلفة عن بقيّة الأمم، ووفق خطّ تطورها الطّبيعي.

في حواره مع الطالب الباحث الفرنسي يتابع كمال داود سخريته من الإسلام، ويدين الشرائع التي تحرم شرب الخمر، بينما يوعدُ به في المؤمنون في الجنة. ويتساءل "لماذا هذه العلاقة المعقّدة مع الخمر؟ لماذا يعطون هذه الصّورة الشيطانيّة عن هذا المشروب في حين أنّه من المفترض أن تنساب أنهار من الخمر في الجنة؟ (....)، إنها القيادة في حالة سكر، ربما لم يرد الله أن تشرب البشريّة فيما هي تقود الكون بالنيابة عنه، وتمسك بمقود السماوات" (**كمال داود، 2015، ص72**). إنّ نبرة التّجديف الساخرة تعلو الخطاب، وتتيح للكاتب تدنيس ما تواضع الناس على تقديسه. لم تعد اللّغة لدى كمال داود تلتزم معايير تقديس الأديان، أو حتّى الدين الإسلامي تحديدا. لقد سقطت اللغة الروائيّة فيما يُعرفُ بازدراء الدّين والسخرية من المتديّنين ومن نمط عيشهم وعاداتهم وطقوسهم. هذه الروح العلمانيّة هي التي ستتيح للكاتب التصالح مع الغرب ما بعد الاستعمار الذي أضحى يقتسمُ معه نفس القيم الدّنيويّة.

يجاهرُ كمال داود بكراهيّته للثقافة الإسلاميّة؛ في حواره مع الطالب الفرنسي يصرّحُ قائلا: "أنا لا أحبّ يوم الجمعة خصوصا، غالبا ما أمضي هذا اليوم من الأسبوع على شقّة شرفتي أنظر إلى الشّارع والنّاس والمسجد؛ مسجد من الضّخامة بحيثُ أنّني أحسّ أنّه يحجبُ رؤية الله" (**كمال داود، 2015، ص93**). بمثّل يوم الجمعة عيدا لدى المسلمين، وهو يومٌ للعبادة،

يتجمّل المؤمنون فيه بأفضل ما عندهم من ثياب، ويتعطّرون، ثم يتوجّهون جماعات جماعات إلى المسجد، والنّاظر إلى هذا المشهد البهيج يدرك أنّ المسلمين في عيدٍ. إضافة إلى كون هذا اليوم يمثّل في المخيال الرّمزي للمسلمين يوما محتفى به في الأرض وفي السماء. لقد وردت أحاديث كثيرة تمجّده. وكراهيّة الروائي له هو بسبب ما يختزله هذا اليوم من أنساق ثقافيّة ظاهرة ومضمرة، وما يثيره من مشاعر دينيّة مشبوبة لدى الفئات الشعبيّة المتديّنة.

لقد بدا وكأنّ الروائي، ومن خلال السرد الروائي يسعى لتغيير تفكير الناس، وعلمنة المجتمع، والتخلص من الطّقوس الدّينيّة التي تعمّق الاختلاف بين الشّرق والغرب. لقد كان يخاطب الغرب من خلال الطالب الفرنسي، ويفاوضه على القيم المشتركة التي يجبُ أن تحكم علاقة المركز بالهامش. إنّه يعرض نفسه باعتباره محاورا عن الهامش، ويهاجمُ تقاليد مجتمعه، وأساطيره، احتفاء بصورة الآخر، مستعمِر الأمس.

يُحدّثنا كمال داود عن أحد جيرانه ممّن تعوّدوا على قراءة القرآن عند نهاية كلّ أسبوع، وهو بصوته "الأخن"، يزعجُ الناس، ولا أحد يتجرّأ أن يطلب منه الكفّ عن إزعاج جيرانه. وحتّى الراوي يحجم هو الآخر عن وضع حدّ لهذا القارئ. يرسم لنا كمال داود صورة كاريكاتوريّة عن هذا المتديّن، فيها الكثير من السخرية والإدانة. "يخنُّ بصوته نائحا متذلّلا، حتّى ليمكن القول أنه يلعبُ بالتناوب مرة دور الجلاّد ومرّة دور الضحيّة. هذا انطباعي دوما عندما أسمعُ تجويد القرآن. أحسّ أن ليس في الأمر كتاب، بل شجارٌ بين سماء ما ومخلوق ما".(**كمال داود، 2015، ص94**) هذا التّمثيل السّاخر للجماعات الإسلاميّة يكشف عن قدرٍ كبير من الكراهيّة للأديان، ولمعتنقيها، ولشعائرها وطقوسها. إنّها صورة رهابية عن ثقافة الذّات، وازدرائها لصالح ثقافة الآخر الدّنيويّة واللادينيّة. لقد بدا وكأنّ الكاتب الذي كتب الرواية بلغة فرنسيّة يتطهّرُ من بقايا الشرق المتخلّف، ويطرق أبواب الغرب، ويتوسّلُ قبوله هنالك باعتباره مثقفا حداثيّا، يروم الذّوبان في ثقافة من كان بالأمس مضطهدا للضّعفاء، ولا يزال إلى اليوم يمارسُ امبرياليّة ثقافيّة وسياسيّة واقتصاديّة لا تخفيها خافية.

إنّ الكثير من مثقفينا يسعون اليوم من خلال السّرد الروائي، إلى تنوير الشعوب العربيّة ومقاومة مظاهر التخلف الاجتماعي والثقافي، ولكن انطلاقا من مرجعيات ثقافيّة وإيديولوجيّة غربيّة. وهو الأمر الذي يستجيب–ويا للمفارقة–لدعوة المستشرقين الذين لا يكفّون عن التّرديد أنّ

العالم الإسلامي لا يملك إلاّ الذّوبان في الثقافة الغربيّة إذا أراد أن يتحرّر من الفقر والتخلف. وهكذا تتحوّلُ الشّعوب العربيّة –انطلاقا من هذا الإدراك الغريب للعلاقة بين الشرق والغرب– إلى أفواجٍ من التابعين الذين يتقنون دور التلميذ الوفي للأستاذ؛ بما أنّ الغرب يبقى المعلم الأول للشرق بشكلٍ أبدي.

الخاتمة:

الواقع أنّ هذه الرواية التي أُريد لها أن تعارض سرديّة غربيّة كولونياليّة، وتكشف عن يقظةِ من كان بالأمس تابعا، تسقطُ في تبعيّة من نوعٍ آخر. فإذا كان المستعمَرُ قديما تابعا لنظام كولونيالي عنيف وقويّ، فإنّنا اليوم –نحن الأفارقة–تابعين لامبرياليّة عالميّة لا يخطئها الإدراك، ولا يُنكرها إلاّ وكيلٌ للاستعمار.

صحيحٌ أنّ كمال داود قوّض الرواية الفرنسيّة عن جريمة مورسو، وفضح الطّبيعة العدائيّة للاستعمار تجاه أصحاب الأرض، وصحيحٌ أيضا أنه أسقط الدّعاية الفرنسيّة عن العدالة الفرنسيّة المزيّفة، وكشف عن ازدراء الفرنسيين للعرب، ولكنّه، في الجزء الثاني من الرواية أبان عن موقف عدائي لثقافة الذّات، وكراهيّة للجماعات الإسلاميّة وللطّقوس التعبّديّة للمسلمين. كما سخر من رموز الإسلام، كالمساجد وأيام الجمعة والقرآن الكريم. هذا الموقف من الذّات يمكن قراءته على أنه المدخل لغربنة المجتمع الجزائري من خلال الثقافة ممثّلة في النّشاط الإبداعي بمختلف أجناسه. إنّ كمال داود ومن خلال السرد الروائي يعمل على تطهير العقل الجزائري من ذاكرته الحضاريّة، لصالح واقع ثقافي جديد موصوف بالكونيّة. يسعى الروائي إلى ترحيل التنوير الغربي بسلبياته وإيجابياته إلى الجزائر..

قائمة المراجع والمصادر:

المصادر:

1–كمال داود، 2015، معارضة الغريب، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

المراجع:

1– أشكروفت بيل، وآخرون، 2010 دراسات ما بعد الكولونياليّة، ترجمة أحمد الربيي، وآخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

2– بوخالفة إبراهيم،2021التابع يتكلم، Edition Itinéraire scientifique ، الجزائر.

3– باومان زيجمونت، 2016، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

4– إدوارد سعيد، 2005، الاستشراق/ المعرفة–السلطة–الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت.

5–ليندا هيتشيون، 2009، سياسة ما بعد الحداثة، ترجمة حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، لبنان.

6–––ميخائيل باختين، 1987، تحليل الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.

7– إدوارد سعيد، 2004، الثقافة والامبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت.

المقالات:

1– مداور محمد، 2021 شعرية المعارضة في رواية "معارضة الغريب" لكمال داود، مجلة المدونة، المجلد 8، العدد 2، البليدة2.

المعاجم:

1– أشكروفت بيل و أهلواليا بال، 2000، إدوارد سعيد/ مفارقة الهويّة، ترجمة سهيل نجم، مراجعة حيدر سعيد، بالاشتراك مع نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة.